



أتحدث هنا عن ثبات الأخلاق على تقلب الأحوال والأيام، وورود الضراء والأذى وانقلابها إلى السراء والنعم، وإرادة شيئاً نادراً ثميناً ويكاد أن يفترض من بيننا..

لقد صار التلون صفة غالبة عند كثير من الناس، استوى في ذلك الضعيف والقوى والفقير والغني مع كل أسف، حتى صار الأصل هو التلون والتغيير والتحايل على الأمور.

فصرنا نرى للمرء الواحد ألف وجه، ونعد له في الخلق الواحد ألف تفسير وتأويل، فالاليوم يفسره على هو مصلحته وغداً يفسره على مناسبة خوفه أو رجائه، والعجيب أن التفسيريين يكونان متضادين للخلق الواحد!!

فلا عجب إذا رأيت من تعرف عنه الشجاعة، جباناً رعبيداً، أو إذا رأيت من علمت عنه الكرم بخيلاً حريصاً، أو إذا شاهدت من خبرته صادقاً واضحاً، كاذباً ماكراً، فقد تقلبت الأيام عليه، فتغيرت أخلاقه!

أخلاقيات الأخيار لا تتغير، بل إن كل يوم ينبغي أن يزيدها ثبوتاً ورسوخاً وظهوراً، وحلوة وطلاؤة، فالسراء تزيدهم حسناً في أخلاقهم إذ يشكرون النعمة، ويعلمون أن المنعم يزيد من يشكره.

وفي الضراء يظهر من حسن أخلاقهم ما قد كان خفياً، إذ السراء تعمل معهم عمل المنقي والمهدب والمربي، فتسد الثلم، وتقوم الاعوجاج، وتظهر المعادن الأصيلة الحقة.

إن الأخلاق كالمبادئ، لا تتجزأ، ولا تتلون بألوان الظروف والأحوال، بل هي راسخة تحيا مع المرء في كل حال، حتى إذا رحل عن الدنيا ترك ميراثاً مضيئاً من صالح الأخلاق وكريم الصفات، فتذكرة المواطن حيث ذكر اسمه، وتعلو من ذكره رائحة زكية عاطرة.

أبناؤنا وشباب أمتنا بحاجة ماسة أن نرسخ فيهم هذا المفهوم، مفهوم الثبات على الأخلاق الكريمة، فلا يغيرهم العطاء، ولا يهزهم المنع، ولا يفت في عضدهم الخوف، ولا يلiven من عزائمهم الأمن.

وإذا أردنا تعليمهم ذلك الدرس فينبغي أن يجدوا منا قدوة عملية تطبيقة للثبات الأخلاقي مهما تغيرت الأحوال.

وكم يؤلمني ما أسمع في بعض بلادنا الإسلامية أن الشباب هم أصحاب المكرمات دون الكبار، وأن الكبار إنما أصحابهم أمراض الأخلاق من خنوع وسلبية ورضا بالدون من الأمور، شدة ألمي -من جانب- لأنني أعلم أن هذا المفهوم مفهوم ظالم لكثير من الكبار، إذ إن كثيرا من هؤلاء الشباب إنما تعلموا هذه الإيجابيات ممن ربواهم، وعلموهم، فكيف الآن يتذكرون لهم!!

ومن جانب آخر أرى تهم الشباب صحيحة منطبقه على البعض من الأجيال السابقة لهم بالفعل، إذ أصحابهم داء الترهل والحرص والطمع!

إن تعليم ابنائنا ثبات الأخلاق يجب ألا يقتصر على حالات نصح ووعظ وإرشاد، بل لابد من متابعة مع تغير الأحوال، وتدريب على الاخشوشان حتى في وجود النعمة، وتعليم لحمل المسؤولية، ثم حزم في مواقف المسؤولية، هذه هي الوصفة الأتتجع، والنصيحة الأربى ..

فإن تكن الأيام علينا تبدل ^{***} ببؤس ونعمى، والحوادث تفعل
فما لانت منا قلوب أبية ^{***} ولا ذلتنا لتي ليس تجمل
ولكن رحلناها نفوسا كريمة ^{***} تحمل ما لا يسع فتحمل

المسلم

المصادر: